مجلة الحقيقة للعلوم الاجتماعية والانسانية
EL - HAKIKA (the Truth)
Journal for Social and Human Sciences

المجلد: 21 / العدد: 04 / السنة: 2022، ص ص:438 - 465

تطور فنون الشّعر العربي في عصر بني أميّة (المدح أنموذجاً)

The Evolution of Arabic Poetry Arts in the Era of Bani Umayyah (Al-Maddah as a Model)

د. الضو إبراهيم الضو أحمد[1]، د. عمار عبد الرحمن إسماعيل أمبدة [2]*

[1] جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية (السودان)، adawport2003@gmail.com

[2] جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية (السودان)، ammanb059@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/03/30 تاريخ القبول: 2022/11/20 تاريخ النشر: 2022/12/30

ملخص:

هذه الدراسة عن تطور فنون الشعر العربي في عصر بني أمية متخذة من غرض المدح " أنموذجاً " وهدفت الدراسة إلى التعريف بتطور شعر المدح في العصر الأموي، والأسباب التي أدت إلى تطوره ثم الحديث عن أنواعه، واتبعت الدراسة المنهج الوصفي والتحليلي معتمدة في مادتها على المصادر التي تناولت أدب عصر بني أمية ، إضافة إلى دواوين الشعراء، وخلصت الدراسة إلى عدد من النتائج منها: أن الإسلام أثر كثيراً على الشعر والشعراء، ثم استفاد الشعراء من القرآن الكريم في ألفاظه ومعانيه، وكذلك السنة الشريفة، ثم إن التنافس بين شعراء الأحزاب السياسية كان له دوره في تطور شعر المدح ونهضته، توصي الدراسة بمزيد من الدراسات عن فنون الشعر في عصر بني أمية وعوامل تطورها.

الكلمات المفتاحيّة: مديح؛ فنون؛ تطور؛ شعر؛ عصر.

Abstract:

This study is about the development of Arabic poetry arts in the era of the Umayyad. taken from the purpose of complimenting (model) . the study aimed the definition of the evolution of poetry complimenting and the causes which lead to its development . then , talking about its kinds, the study followed the descriptive and analytical method. depending on its article on the sources which dealt with the poetry in the era of the Umayyad in addition to collections of poets . the study concluded number of results such as : Islam is greatly impact on poetry and poets. then poets benefited from the Quran in its

* المؤلف المرسل

expressions and meanings. as will as holy sunnah. moreover, competition between the poets of political parties and various poetic environment have had a role in the development and renaissance of poetry . the study recommends further studies on poetry arts in era of the Umayyad and factors of developments.

Keywords: praise; Arts; development; poetry; era.

1.مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً وبعد:

تطورت فنون الشعر العربي في العصر الأموي، نتيجة لأسباب كثيرة، منها الأثر الكبير الذي أحدثه الإسلام في حياة العرب عامة، وحياتهم الشعرية خاصة، ثم كان ظهور الأحزاب السياسية، كحزب بني أمية، وحزب الشيعة، وحزب الخوارج، وحزب الزبيريين، حيث انحاز كل شاعر إلى حزب معين يمدحه ويهجو معارضيه، ثم كان تشجيع خلفاء بني أمية للشعراء وبذل الأموال لهم. كل ذلك جعل الشعراء يتهافتون على الخلفاء وعلى ولاتهم وعمالهم، يمدحونهم لينالوا من أموالهم.

قسم الباحثان المقال إلى ثلاثة محاور، تحدثا في المحور الأول عن شعر المدح من حيث المفهوم اللغوي والاصطلاحي معتمدا على عدد من المعاجم، ثم ذكرا عدداً من التعريفات لأدباء سابقين ومتأخرين، وفي المحور نفسه تناولا عوامل تطور شعر المدح في العصر الأموي، ثم جاء المحور الثاني عن أنواع المدح في العصر الأموي، وأخيراً في المحور الثالث بعض السمات المميزة لشعر المدح.

اتبع الباحثان في هذه البحث المنهج الوصفي التحليلي، وفي نهاية المقال كانت خاتمته، وفيها أهم النتائج التي توصل إليها الباحثان.

2. المحور الأول: المديح مفهومه وعوامل تطوره في العصر الأموي

2. 1. المديح في اللغة والاصطلاح

قال ابن منظور في لسان العرب عن كلمة مدح : "المدح: نقيض الهجاء، وهو حسن الثناء. ويقال مدحته مِدْحةً واحدةً، ومدحه يمدحه مَدْحاً ومِدْحة، هنا قول بعضهم. والصحيح أن المدح المصدر، والمِدحة الاسم، والجمع مِدَحٌ، وهو المديح، والجمع المدائح، والأماديح الأخيرة على غير قياس. والمدائح: جمع المديح من الشعر الذي مُدح به كالمِدْحة والأمدوحة وتمدح الرجل: تكلف

أن يُمْدَحَ، ورجل مُمَدَّحٌ أي: ممدوح جداً. والممادح ضد المقابح" (ابن منظور، 1985م، ص4156)

وفي أساس البلاغة: "مَدَحَه وامتدحه. وفلان ممدوح وممْتَدح ومُمَدَّح: يُمْدَح بكلِّ لسان، ومادحه وتمادَحوا، ويقال: التَّمادح التذابح. والعربُ تتمدَّح بالسخاء. وهو يتمدح إلى الناس: يطلب مَدْحَهم. وعندي مَدْحٌ حسنٌ ومَديحٌ ومَدائحُ، ومِدْحَة ومِدَح ومَمْدَحة ومَمادِحُ وأُمْدوحة وأماديحُ" قال الشاعر: **(الزمخشري، 1404هـ/ 1984م، ص585)**

لوْ كانَ مِدْحةُ حَيّ مُنْشِراً أحداً أحيا أباكُنَ يا لَيلى الأماديحُ

قال ابن رشيق القيرواني عن المدح: "سبيل الشاعر في المدح أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح ، وأن يجعل معانيه جزيلة، وألفاظه نقية، غير مبتذلة سوقية ويتجنب فيها التقصير والتجاوز والتطويل". (**ابن رشيق، 1995م، ص127)**

والمديح في اصطلاح الأدباء والنقاد: "غرض من أغراض الشعر جوهره شكر المحسن والثناء عليه، والإشادة بمناقبه وهو حي، والتنويه بآلائه، وذكر محامده التي أُثرت عنه، أو فطره الله عليها، أو التي اكتسبها من تمرُّسِه بالتجارب، أو التي يتوسمها فيه الشاعر، ولو لم تكن". **(طليمات، الأشقر، 1422هـ/ 2002م، ص327)**

والمدح هو "الثناء باللسان على جميل مطلقاً، سواء أكان من الفواضل ومن الفضائل، وسواء أكان اختيارياً وغير اختياري. ولا يكون إلا قَبْلَ النعمة، ولهذا لا يقال: مدحت الله، إذ لا يُتَصَّوَرُ تقدُّمُ وصف الإنسان على نعمة الله بوجه من الوجوه لأن نفس الوجود نعمة من الله تعالى . هذا القول نقله الدكتور غازي طليمات والأستاذ عرفان الأشقر عن أبي البقاء الكفوي، ولاشك أنه خلع على المدح ظلاً فلسفياً". **(طليمات، الأشقر، 1422هـ/ 2002م، ص327)**

قال الدكتور سامي الدهان في كتابه المديح: "المدح هو فن الثناء والإكبار والاحترام. قام بين فنون الأدب مقام السجل الأدبي لجوانب من حياتنا التاريخية، إذ رسم نواحي عديدة من أعمال الملوك، وسياسة الوزراء، وشجاعة القواد، وثقافة العلماء، فأوضح بعض الخفايا، وكشف بعض الزوايا، وأضاف إلى التاريخ– صادقاً أو كاذباً– ما لم يذكره التاريخ". (**الدهان، 1999م، ص5)**

وشعر المديح من أكثر الأبواب الشعرية شيوعاً وانتشاراً بين شعراء العربية، لعل السبب في ذلك يرجع في أغلب الأحيان إلى أنه وسيلة كسب لدى كثير من الشعراء إذ يحاولون بالمدح أن

ينالوا عطايا وجوائز الحكام والأمراء، وغيرهم ممن يمدحونهم لذا كان لابد من الإجادة والتحسين للقصائد حتى ينال الشاعر أكبر قدر من الجوائز. (**الدهان، 1999م، ص5**)

2. 2. مكانة شعر المدح:

المدح من الموضوعات التي طرقها الشعراء السابقون في عصري الجاهلية وعصر صدر الإسلام، ففي الجاهلية مدح الشعراء رؤساء القبائل، و الملوك كالمناذرة والغساسنة، ومدحوا – أحيانا– شخصيات بعينها لها مكانة في المجتمع الجاهلي. (**الجبوري، 1989م، ص356**)

ومن الشعراء الذين مدحوا شخصيات بعينها النابغة الذبياني الذي مدح ملوك المناذرة في الحيرة في العراق، وحسان بن ثابت الذي مدح ملوك الغساسنة في دمشق، وزهير بن أبي سلمى الذي مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف اللَّذَين أصلحا بين قبيلتي عبس وذبيان بعد حربهما المشهورة (داحس والغبراء).

أما الصفات التي مدح بها الشعراء ممدوحيهم منها الكرم والشجاعة والنجدة والمروءة وحماية الجار والوفاء بالعهد وغيرها من الصفات الحميدة.

ولما جاء الإسلام بتعاليمه السمحاء تطور مفهوم المدح عند الشعراء، خاصة بعد تأثير القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عليهم، فمدح الشعراء الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالصفات التي وصفه القرآن الكريم بها. كما مدح الشعراء الخلفاء الراشدين والصحابة (رضوان الله عليهم) ، ولم يعد المدح للتكسب مثلما وجد عند بعض شعراء العصر الجاهلي، بل كان المدح تقرباً إلى الله تعالى ومشاركة من الشعراء في نشر الدعوة الإسلامية.

وبقيام الدولة الأموية مدح الشعراء خلفاء وولاة الدولة الأموية لنيل عطاياهم وجوائزهم، ثم تحول المدح إلى ما يشبه المهنة عند بعض الشعراء ، وكان ذلك سبب في تجويد القصائد التي يمدح بها ومما أدى إلى تطور فن المدح في هذا العصر.

ازدهر فن المديح في عصر بني أمية، واحتل المنزلة الأولى بين أغراض الشعر الأخرى، فقد شجع خلفاء بني أمية شعراء المديح، وفتحوا لهم أبواب قصور الخلافة، وأكرموا وفادتهم فجاءوا من أرجاء الدولة محملين بقصائد المدح التي نظموها في مدح خلفاء بني أمية والتغني بفضائلهم ومحامدهم.

2. 3. عوامل تطور فن المدح في العصر الأموي

ساعدت عدة عوامل على تطور الشعر عامة وشعر المدح بصفة خاصة، منها ما يلي:

1/ أهم العوامل التي أدت إلى تطور الشعر عامة والمدح خاصة هو الدين الإسلامي الذي أمد الشعراء بكثير من الألفاظ والمعاني والأساليب.

2/ تشجيع خلفاء بني أمية للشعراء على مدحهم، والتغني بمآثرهم، وتبيين أحقيتهم للخلافة ومن هنا قصد الشعراء خلفاء الدولة الأموية مادحين لهم، ومتحدثين عن فضائلهم، ويكاد يكون معظم خلفاء دولة بني أمية نالوا حظهم من مدح الشعراء إلا القليل منهم، وحتى الخليفة يزيد بن عبد الملك الذي عرف عنه ميله للهو والمجون والتشبيب بالنساء مدحه بعض الشعراء أمثال النابغة الجعدي.

3/ كان خلفاء بني أمية عرباً خلصاً يطربهم القول البليغ ويؤثر فيهم، بل كان بعضهم من يقول الشعر وينقده، كعبد الملك بن مروان، ومن هنا كانت الحاجة إلى تجويد الشعر وتحسينه للظفر بأكبر قدر من المكافأة.

4/ كانت لبعض ولاة أمية مكانة كبيرة في أقاليمهم ولا نبالغ إن قلنا إنها تكاد تضاهي مكانة بعض الخلفاء مثل الحجاج بن يوسف الثقفي الذي قصده الشعراء وخاصة في منطقة العراق . وقد أعطى الولاة الشعراء عن بذخ ولم يبخلوا عليهم .

5/ كان لقيام الأحزاب السياسية التي نشأت في عصر بني أمية – ونعني بها الأحزاب المعارضة لسياسة الأمويين– كان لهذه الأحزاب شعراؤها، المدافعون عنها والمتحدثون باسمها، والملتزم بمنهجها، وأشهرها أحزاب الشيعة والخوارج وبني الزبير.

6/ قد أثر الاختلاط الذي تم بين العرب وغيرهم في هذا العصر على تطور العقل العربي فأوجد قوة في الجدل والمنطق انعكس على الشعر الذي كان من أهم وسائل الدعاية الناجحة، فالعربي يتأثر تأثراً عميقاً بما يقال فيه من مدح، أو ذم ويهتم كثيراً بآراء الناس فيه .

7/ اتسعت الثقافة في هذا العصر، فشملت الثقافة الإسلامية والعربية والأدبية، وتعددت مواطن وبيئات الثقافة والعلم فكان من المراكز الثقافية مكة والمدينة في الحجاز، ودمشق في الشام، والقاهرة في مصر، والكوفة والبصرة في العراق، والقيروان في شمال إفريقيا وغيرها. (**خفاجي، 1410هـ/ 1990م، ص84)**

9/ ويضاف إلى ما سبق تحسن الحياة الاقتصادية نتيجة إلى كثرة الفتوحات الإسلامية التي أضافت للدولة كثيراً من البلاد ذات الخيرات الوفيرة.

3. المحور الثاني: أنواع المدح في العصر الأموي

3. 1. مدح آل البيت (رضي الله عنهم)

لقي آل بيت النبي (صلى الله عليه وسلم) كثيراً من المتاعب والمشاكل من قبل حكام الدولة الأموية، وقتل عدد كبير منهم، وخاصة في كربلاء، ولا شك أن ما لقيه آل بيت النبي (صلى الله عليه وسلم) آل علي بن أبي طالب. جعل عدداً من الشعراء يقفون معهم، ويمدحونهم بقصائدهم، ويتحدثون عن أحقيتهم بالخلافة.

ومن أوائل القصائد التي تطالعنا في مدح آل البيت أبيات قالها الكميت بن زيد الأسدي في مدح سيدنا علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وموضوعها الحديث عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وفيه تظهر عقيدة الشاعر الشيعية ويرى أن النبي(صلى الله عليه وسلم) اصطفى علياً يوم (غدير خم) وأسند إليه ولاية المسلمين، وفيها تعريض بخصوم سيدنا علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) لأنهم حجبوا بينه (رضي الله عنه) وبين وصية النبي (صلى الله عليه وسلم) له قال: (الأسدي، 2007م، ص158- 159)

لفقدان الخضارم من قريش وخير الشافعين معاً شفيعا
لدى الرحمن يصدع بالمثاني وكان له أبو حسن مُطيعا
حطوطاً في مسرتـه ومولى إلى مرضاة خالقه سريعا
وأصفاه النبي على اختيار بما أعيا الرَّفُوض له المذيعا
ويوم الدوح يوم (غدير خم) أبان له الولاية لو أطيعا
ولكن الرجال تبـايعوها فلم أر مثلها خطراً مبيعا
فلم أبلغ بهم (لعناً) ولكن أساء بذلك أولهم ضيعا
فصار بذاك أقربهم لعدل إلى جور وأحفظهم مضيعا

والأبيات يتحدث فيها الشاعر عن سيدنا علي (رضي الله عنه) ويعدد مناقبه، وتزكية النبي(صلى الله عليه وسلم) له خليفة للمسلمين، ويعرض فيها بمن حجبوا بينه وبين الوصية، واستخدام كلمات مثل(الولاية) و(غدير خم) تدل على عقيدة الشاعر الشيعية.

و يمدح الكميت الأئمة من الهاشميين بقوله: (ضيف، 2010م، ص328)

الحُماة الكُفاة في الحرب إن لُ فَّ ضراماً وقودها بضرام

والغيوث الذين إن أمْحَلَ النَّا س فمأوى حواضن الأيتام

غالبين هاشميين في العلم رَبَوْا من عطية العلام

وهم الآخذون من ثقة الأمر بتقواهم عرى لانفصام

علق الدكتور شوقي ضيف على الأبيات السابقة بقوله:" ويضيف الكميت إلى هذه الصفات صفة العدل، فهم عدول إذا حكموا الناس لم يظلموهم نقيراً، وكثيراً ما يقف في تقريره لهذه الصفة عند جور بني أمية، وظلمهم للناس، وأنهم لا يتقون الله في رعايتهم لهم". (ضيف، **2010م، ص328**) وفي البيت الأخير أقتبس الشاعر من قوله تعالى: (... فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها...) (**البقرة: 256**) وفي ذلك دلالة على عدم الانفصام والتمسك المحكم المبرم القوي بين أئمة الهاشميين.

وأشهر قصيدة قالها الكميت في آل البيت(رضي الله عنهم) بائيته التي يقول في مطلعها:

طربت وما شوقاً إلي البيض أطرب ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب

والقصيدة من الشعر السياسي الذي يختلط فيه مدح آل البيت بهجاء بني أمية، وما الشعر السياسي إلا مدح وهجاء وحماسة. وقال بعد البيت السابق:

ولم يُلْهِني دارٌ ولا رسمُ منزلٍ ولم يَتَطرَّبْني بنانٌ مُخضَّبُ

ولا أنا ممن يزجر الطيرُ هَمَّه أصاح غرابٌ أم تعرَّض ثعلبُ

ولا السانحاتُ البارئحاتُ عشيةً أمرَّ سليمُ القرنِ أم مرَّ أعْضَبُ

ثم يتخلص الشاعر إلى المدح فيقول: (**الأسدي، 2000م، 512– 515**)

ولكن إلى أهل الفضائل والنهى وخير بنى حواء والخير يطلبُ

إلى النفر البيض الذين بحبهم إلى الله فيما نابني أتقربُ

بني هاشم رهط النبي فإنني بهم ولهم أرضى مراراً وأغضبُ
خفضت لهم مني جناحَيْ مودةٍ إلى كنف عِطْفاه أهلٌ ومرحبُ

وفي الأبيات يمدح الكميت الهاشميين من آل البيت لا من أجل حب الدنيا (وإلا لقصد إلى ما هي بيديه) ولكنه أحبهم للآخرة. وفي ذلك استخدم الشاعر عاطفة صادقة أصيلة تقوم عليها اعتقاد بثوابها في الدار الدائمة. فأي عاطفة أصدق من أن يؤمن الشاعر بأن حبهم إنما هو إتمام لأيمانه بالله؟ والتقرب إليه؟ وأي عاطفة أصدق من أن يجعل غضبه لا يكون إلا لهم؟ ورضاه لا يكون إلا بهم؟ وما حياة الكائن البشري إلا رضى وغضب ثم لاحظ هذه (فإنني) التي يؤكد بها غضبه ورضاه، والتي اعتبر أن البيت لم يبتدئ إلا بها.

وقصيدة الكميت السابقة هي مجموعة من شعره الذي عرف بالهاشميات. ولعل عناية الشيعة بها وحفظهم لها فقد لهجت ألسنتهم بها وتناشدوها، حتى أنهم قالوا:" إن من لم يرو قول الكميت: (طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب) فليس بشيعي". (**عبد القادر، 2001م،ص 272**)

وقال كثير يمدح أهل البيت :

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعةٌ سواءُ
عليّ والثلاثة من بينه هم الأسباط ليس بهم خفاءُ
فسِبْط سبط إيمان وبرٍّ وسبطٌ غيَّبتهُ كربلاءُ
وسبط لا تراه العين حتى يقود الجيش بقدمها اللواءُ
تغيب لا يرى عنهم زمانا برضوي عنده عسل وماء

أكّد كثير عزة في هذه الأبيات أن الخلفاء أربعة فقط وهم في مقام واحد: علي بن أبي طالب، وأبناؤه الحسن والحسين- رضي الله عنهم أجمعين- وخليفة رابع هو محمد بن الحنفية، وهو ليس من أسباط الرسول- صلى الله عليه وسلم- ولكن جمع من الحسن والحسين تغلبيًا. يقود الخيل يقدمها اللواء: يرجع بجيش للقضاء على الظالمين.

وعقيدة الشاعر واضحة في هذه الأبيات، وهي عقيدة الشيعة الكيسانية التي تؤمن بالرجعة، والكيسانية أتباع محمد بن الحنفية، ويقولون برجعته بعد موته وهو منهم براء، وابن الحنفية هو ابن علي بن أبي طالب(رضي الله عنهم).

وقال أيمن بن خريم عن آل البيت النبوي الشريف الذين يراهم مثالاً للسعي في سبيل الله، وعملاً صالحاً، وإحساناً ومراضةً وإخلاصاً وتقىً ، ورفعة ونقاء، مفضلاً أياهم على من سواهم، بما آثرهم الله من فضله وكرمه. قائلا في ذلك: (**الأسدي، 2007م، ص160– 161**)

نهاركم مكابدة وصوم وليلكم صــلاة واقتراء
وليتم بالقرآن وبالتزكي فأسرع فيكم ذاك البــلاء
أأجعلكم وأقواماً ســواء وبينــكم وبينهم الهـواء
وهم أرض لأرجلكم وأنتم لأرؤسهم وأعينهم سماء؟!

وإذا كانت قصيدة الكميت(طربت وماشوقاً إلى البيض أطرب) قد بلغت مكانة رفيعة بين قصائد مدح آل البيت – فإن قصيدة الفرزدق في مدح علي بن الحسين (رضي الله عنه) ، تكاد تصل إلى المكانة نفسها من الذيوع والانتشار ومعرفة الناس لها، وذلك لمكانة الممدوح.

روى الأصفهاني في الأغاني :" حج هشام بن عبد الملك في خلافة الوليد أخيه، ومعه رؤساء أهل الشام، فجهد أن يستلم الحجر، فلم يقدر من ازدحام الناس، فنصب له منبر، فجلس عليه ينتظر الناس، وأقبل علي بن الحسين – وهو أحسن الناس وجهاً، وأنظفهم ثوباً، وأطيبهم رائحة – فطاف بالبيت، فلما بلغ الحجر تنحى الناس كلهم، وأخلَوْا له الحجر ليستلمه هيبة وإجلالاً. فغاظ ذلك هشاماً، وبلغ منه، فقال رجل لهشام: من هذا؟ أصلح الله الأمير! قال: لا أعرفه – وكان به عارفاً – ولكنه خاف أن يرغب فيه أهل الشام، ويسمعوا منه فقال الفرزدق – وكان لذلك كله حاضراً – أنا أعرفه، فسلني يا شامي. قال: ومن هو ؟" قال الفرزدق: (**طليمات، الأشقر، 1422هـ/ 2002م، ص347– 348**)

هذا الذي تعرف البطحاء وطأتَه والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقي النقي الطاهر العلم
إذا رأته قريــش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يكاد يمسكه عرفان راحته ركنُ الحطيم إذا ما جاء يستلم
فليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم

في هذه الأبيات أراد الفرزدق أن يعرف هشام بن عبد الملك، أو يذكره بأن هذا الرجل، ليس نكرة، فهو معروف لدى مكة المكرمة كلها، ومنها بيت الله الحرام، ومواقع الحل، ومواقع

الإحرام... وليس وحسب بل أن الحجر الأسود من شدة حبه لهذا الرجل يكاد يمسك يده من شدة حبه. وهنا ينشئ الفرزدق علاقة ود وحب بين الحجر الأسود وزين العابدين، والسبب في ذلك أن الله تعالى شرف هذا الرجل وعظمه في لوحه المحفوظ. وهنا صورة بلاغية جميلة، تكمن في العلاقة الحميمة بين الإمام السجاد والحجر الأسود، هذا الحجر صار يملك عاطفة وشعوراً كبيراً بالمودة والسعادة حينما يأتي ابن الحسين لكي يستلم، فالمسألة ما عادت معرفة فقط، لكثرة التردد، وإنما هي حب وعلاقة ود.

وهذا يدل بلا شك على إيمان هذا الرجل، وعمق علاقته بالمولى عز وجل، بدليل كثرة تردده على هذه المواقع المقدسة. لذلك لم يبدأ الفرزدق بشيء في الحديث عن هذا الرجل بأنه صاحب مال وجاه، بل بدأ حديثه عنه أنه على علاقة وطيدة بالمولى عز وجل وبالمقدسات الإلهية، فكان أول إجابة على السؤال الهشامي، الاستنكاري. وقد أوصل الشاعر هذه الفكرة بصورة فنية لافتة، تتمثل في الاستعارة المكنية التي تتمثل في جعل الأرض والكعبة على هيئة بشر ذات معرفة وذاكرة التي تعرف وطأة على السجاد، وهي الجماد.

ومن الملاحظ أن الشاعر أكثر من اسم الإشارة (هذا) وهو الاسم الذي يدل على القريب، وذلك للدلالة على أن هذا الرجل قريب من الناس، معروف لديهم. وكأن الفرزدق أراد الإشارة إلى جهل هشام أو تعمده الجهل، بدليل أنه لم يعرف هذا الرجل الذي هو ابن خير عباد الله كلهم، أي ابن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فهل أحد بموقع هشام يجهل ابن نبيّه؟ وأليس غريبا من هشام لا يعرف شخصاً تعرفه العرب والعجم.

ولا شك أن مدح آل البيت بهذه الصفات، صفات التقوى والهدى والمعرفة بأحكام الشريعة والأحقية بالخلافة والإمامة وغيرها كما نرى ذلك عند كثير من مادحي آل البيت- هي كلها تدل دلالة واضحة على تطور فن المدح عند شعراء العصر، وسنرى ذلك بصورة أوضح فيما سيأتي من نماذج .

3. 2. مدح الأمويين

لما كان حكام الدولة الإسلامية من الأمويين، فلا شك أنهم كانوا قبلة للشعراء، يمدحونهم إن كان حباً لهم، أو عصبية أو طلباً للعطاء، ومن هنا احتل مدحهم قسماً كبيراً من مدح العصر الأموي .

ويقف الخليفة عبد الملك بن مروان على رأس الخلفاء الذين قصدهم الشعراء، والخليفة عبد الملك في عهده توطدت أركان الدولة وانتشر الأمن والرخاء، ولا عجب أن رأينا عدداً كبيراً من الشعراء يفدون عليه ويمدحونه مثل جرير والأخطل والفرزدق، وهؤلاء الثلاثة كانت لهم مكانة في بلاط بني أمية، وبجانب الشعراء الثلاثة هناك آخرون منهم عبد الله بن قيس الرقيات، وأعشى ربيعة، وعمر بن أبي ربيعة وغيرهم، وأشهر ما قاله جرير في عبد الملك قصيدته التي مطلعها : (**جرير، 1425هـ/ 2005م، ص117**)

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشية هم صحبك بالروح

روي أن عبد الملك كان واجداً على جرير لأنه لم يكن من أصحاب دعوتهم، فلما سمعه ينشد(أتصحو أم فؤادك غير صاح) شتمه وقال له: (بل فؤادك يا ابن الفاعلة)، وظل غاضباً عليه حتى وصل جرير إلى قوله :(ألستم خير من ركب المطايا؟) فسر عبد الملك. وقال(من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو يسكت). (**جرير، 1425هـ/ 2005م، ص117**)

وبعد مقدمة غزلية ومحاورة مع زوجته يدخل في المدح فيقول: (**جرير، 1425هـ/ 2005م،ص110– 120**)

أغثتني يا فداك أبي وأمي بسيب منك إنك ذو ارتياح
فأني قد رأيت على حقاً زيارتي الخلفية وامتداحي
سأشكر إن رددت عليَّ ريشي وأثبت القوادم في جناحي
ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح
لكم شم الجبال من الرواسي وأعظم سيل معتلج البطاح

يستجدي الشاعر الخليفة راضيًا عنه ويعطيه الأموال، ثم يستجديه أن يمنحه ما يكفيه، وأن هذا المدح حق عليه، ويطلب من الخليفة ألّا يرده مكسور الجناح، ثم يصفه بالكرم هو وقومه، وبأنهم خير من ركب الخيل والإبل وكل ما يُمتطى، ويقصد قريش.

ويبدو أنّ هذا النّظام المثالي في الأبيات السّابقة لدى جرير كان قد دعاه إلى تكثيف معطاه الفني بحيث امتزجت مستويات الخطاب عنده وتنوّعت واستنطقت كثيرًا من الدّلالاة المعنويّة وأفاضتها معانٍ دنيويّة (واقعيّة). فالمفردات التّالية (أغثني، زيارتي، سأشكر...) ما هي في حقيقتها إلّا معانٍ تدلّ على تكسب الشاعر بشعر المدح.

وللشاعر جرير بن عطية عدد من القصائد في مدح عبد الملك ابن مروان. فمن ذلك قوله: **(جرير، 1425هـ/ 2005م، ص437)**

لولا الخليفةُ والقرآن يقرأه ما قام للناس أحكامٌ ولا جُمَعُ
أنت الأمين أمين الله لا سَرِفٌ فيما وليت ولا هيَّابة ورع
أنت المبارك يهدي الله شيعته إذا تفرقت الأهواء والبدع
فكل أمر على يُمنٍ أمرْتَ به فينا مطاع، ومهما قلت يستمع
يا آل مروان! إن الله فضلكم فضلاً عظيماً على مَنْ دينُه البدع

هذي معان جديدة في المدح يبدو فيها الخليفة عماداً للمسلمين، قارئا للقرآن الكريم، يعرف أسراره، ويبينها للناس على بصيرة من أمره، وسداد فعله، أميناً لله لا يخشى في الحق لومة لائم، مباركاً يهدي به الله من يشاء من عباده، ولذا حق لرعية طاعته ويجب على أبناء الأمة الاقتداء بسيرته.

والأبيات صاغها الشّاعر بأساليب إنشائيّة وبلاغيّة متنوّعة من نداء، وصور بديعية كالتكرار والجناس وغيرها. وفي ظنّنا أنّ هذا التّنويع الإنشائي والبلاغي من شأنه أن يرتقي بالنّص الشّعري ويسمو به؛ لما فيه من إثراء للمعاني والأفكار وتوسيع للحدود والأبعاد، فضلاً عن استثارة الأذهان وتنشيطها.

وللأخطل – رغم نصرانيته – أمداح كثير في عبد الملك بن مروان . روى صاحب الأغاني" : أن الأخطل كان يدخل على عبد الملك بغير إذن، ويجئ وعليه جبة وفي عنقه سلسلة ذهب يتدلى منها صليب من ذهب وتنفض لحيته خمراً". **(عبد القادر، 2001م، ص103)**

وتقريب عبد الملك للأخطل يعود بجانب إجادته الفنية في شعر المدح إلى جانب وقوف قبيلة تغلب والتي منها الأخطل إلى جانب بني أمية. **(عبد القادر، 2001م، 272)**

وتعد قصيدة الأخطل (خَفَّ القَطينُ) من أروع ما قال الأخطل في مدح عبد الملك بن مروان قال في جزء منها:

حشد على الحق غيَّافو الخَنا أُنُفٌ إذا ألمَّتْ بهم مكروهةٌ صبروا
وإن تدجت على الآفاق مُظْلمةٌ كان لهم مخرج منها ومُعْتَصَرُ
أعطاهم الله جدا ينصرون به لا جدَّ إلا صغيرٌ بعدُ مُحْتَقر
شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

وتدور معظم أبيات القصيدة حول وصف عبد الملك بصفات مثل الكرم، والثبات، الحزم والشجاعة والقوة وأنه خليفة الله المبارك وغيرها من الصفات.

ومن ثمّ صفات كهذه الّتي شبّه الشّاعر بها ممدوحه وضمّنها نصّه السّابق كانت قد أدّت وظيفتها ودورها ودلالتها المعنويّة؛ لأنها" بنية حيّة متحرّكة ومؤثّرة لها خصوصيتها الفنيّة المتجدّدة في البناء العام للقصيدة العربيّة".(**مطلك، 1987م، ص244**)

قال الدكتور شوقي ضيف عن قصيدة (خف القطين):" قد أُحْكم نسجها حتى لتتوهج بعض أبياتها مثل الأبيات السابقة". (**ضيف، 2010م، ص262**)

ويعد الخليفة عمر بن عبد العزيز من أحسن خلفاء بني أمية سيرة، وأنقاهم سريرة، وأنزههم يداً وأعفهم لساناً، حتى شبه المسلمون خلافته بخلافة جده عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) في عدله وزهده وورعه، ولم يحظ خليفة بمدح الشعراء واحترامهم وتقديرهم مثلما حظي الخليفة عمر بن عبد العزيز على الرغم من أنه لم يكن يجود على الشعراء، ولم يوسع لهم في مجلسه، ولم يكن لهم في بلاطه مثل الخلفاء السابقين له. وقد مدحه الشعراء بالعدل والوفاء والتمسك بالكتاب والسنة والتواضع والصلاح. وأعجب الشعراء بتصرفاته خاصة في اختيار الولاة لحكم الأقاليم. ومن الشعراء الذين مدحوه عتبة بن شماس، وعويف القوافي، والأحوص، ودكين بن سعيد الدارمي، وكثير عزة، وجرير، ومحارب بن دثار، ومحمد بن خالد بن الوليد بن عقبة، وعون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود. (**عبد القادر، 2001م، ص103**)

ومن الشعراء الذين مدحوا الخليفة عمر بن عبد العزيز الشاعر كثير عزة الذي صور زهده وإعراضه عن الدنيا وفتنتها ومتاعها الزائل الذي يتهالك عليه الناس، في قوله :

وُلِّيتَ فلم تشتمْ علياً ولم تُخفِ بريا ولم تقبل إشارة مجرم

وأظهرت نور الحق فاشتد نوره على كل لبس بارق الحق مظلم
وصدقت بالفعل المقال مع الذي أتيت فأمسى راضيا كل مسلم
تكلمت بالحق المبين وإنما تبيَّنُ آياتُ الهدى بالتكلم
تركت الذي يفني وإن كان مونقا لو آثرت ما يبقى برأي معمم
ولو يستطيع المسلمون لقسموا لك الشطر من أعمارهم غير نُدَّم
فعشت به ما حج لله راكب مُعذٌّ مطيفٌ بالمقام وزمزم
فأربحْ بها من صفقة لمبايع وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم

ومعظم الذين مدحوا الخليفة عمر بن عبد العزيز يخلعون عليه مثل هذه الصفات الدينية، كما نرى في الأبيات، فهو لم يسب علياً (رضي الله عنه) كما كان يفعل أسلافه من خلفاء بني أمية، وأمن الناس في أيامه حتى لو يستطيع المسلمون أن يهبوه شطر أعمارهم لفعلوا، ولكنهم ها هم يدعون له بطول العمر، و لكن أين؟ إنها عند مقام إبراهيم– عليه السلام– وعند شرب ماء زمزم، فأعظم بها من دعاء.

وما يمكن لنا أنْ نلاحظه ونبرزه من النّاحية الأسلوبيّة ذلك التّكرار لكلمة (أعظم)، إذ إنّ تكرارًا صوتيًّا كهذا من شأنه أن يعمل على " تشكيل نظام موسيقي ذي ميزة غنائيّة تخدم إغناء الصّورة وجعلها تتحرّك مساحة النّص بحيويّة جذّابة". (**عبده، 2006، ص153**) فضلًا عن " أنّ النّسق الصّوتي والدّلالي الذي يتمّ إبرازه بفعل هذه التّقنية الأسلوبيّة يعمل على تجمع العناصر المتشابهة في النّصّ؛ لخلق موازنات صوتيّة من خلال أركام تلك الموازنات في بؤرة دلاليّة واحدة تكشف المعنى المراد". (**الصميدعي، 2010م، ص203**) ومن ثمّ فشعر المديح الذي قدّمه الشّاعر لممدوحه كان وسيلة لبيان محاسنه وصفاته الحميدة. ومن ثمّ فهو تعزيز للمعنى وتوثيق له من ناحيتيَ البنية والدّلالة.

والقيم نفسها مدح بها الشاعر جرير الخليفة عمر بن عبد العزيز في قوله: (**جرير، 1425هـ/ 2005م، ص333**)

أنت المبارك المهدى سيرته تَعصي الهوى وتقومُ الليل بالسورِ
أصبحت للمنبر المعمر مجلسه زيناً وزينَ قباب الملك والحجر

نال الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

فالخليفة عمر بن عبد العزيز كانت الخلافة له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر وهنا استفاد الشاعر من معنى الآية الكريمة (ثم جئت على قدر يا موسى). (طه، 40)

وأفرد عدي بن الرقاع العاملي لوحة فنية لمدح الوليد بن عبد الملك مسنداً له السبق للمكرمات وجلائل الأعمال، فائزاً بالملك المسدد من قبل الله (سبحانه) والمؤيد بمدده وعونه، وبركاته، فصار وسيلة لالتقاء شمل المسلمين ووحدة المؤمنين: (**ضيف، 2005م، ص98–99**)

صلى الذي الصلوات الطيبات له والمؤمنون إذا ما جمعوا الجمعا
على الذي سبق الأقوام ضاحية بالأجر والحمد حتى صاحباه معا
هو الذي جمع الرحمن أمته على يديه وكانوا قبله شيعا
وإن الوليد أمير المؤمنين له ملك عليه أعان الله فارتفعا

قال الدكتور شوقي ضيف:" فأنت تراه يسمو بالوليد إلى شأو بعيد من التقديس على نحو ما يسمو الشيعة بأئمتهم، وتأمل في البيت الأول والثاني وما يصوغ عدي من الدعاء، فهو يدعو الله أن يصلي على إمامه الوليد، ويدعو المسلمين كذلك أن يصلوا عليه في صلواتهم وجمعهم، فقد جمع الله الأمة على يديه، وأعانه ليرتفع بها إلى كل ما يريد لها من خير". (**ضيف، 2005م، ص99**)

وقال جرير في الخليفة الوليد بن عبد الملك: (**جرير، 1425هـ/ 2005م، ص613– 614**)

إن الوليد هو الإمام المصطفى بالنصر هز لواؤه والمغنم
ورث الأعنة والأسنة وانتمى في بيت مكرمة رفيع السلم
ورأيت أبنية ذوت وتهدمت وبناء عرشك خالد لم يهدم
ترك النجاة وحل حتى تمنعت أعياصه فكل خير ينتمي
عرف البرية أن كل خليفة من فرع عيصك كالفنيق المغرم
خزم الأنوف وقاد كل عمارة صعب القياد مخاطر لم يخزم
وبنو الوليد من الوليد بمنزل كالبدر حف بواضحات الأنجم

وعبارات وكلمات جرير السابقة في مدح الوليد من اصطفاء الله تعالى له من بين جميع خلقه، وإن الله شد لواءه بالنصر والمغنم، وإن الممدوح ورث مقومات الحرب من خيل وسلاح

ونشأ في بيت كريم رفيع العماد كل ذلك من المعاني الجديدة في المدح في هذا العصر، ويشير في البيت الثالث إلى هدم الوليد لكنيسة النصارى كانت تؤذي أصوات نواقيسها المصلين في المسجد الجامع في دمشق.

ووظف الشاعر الصور البيانية خير توظيف وذلك عند استعماله للتشبيه في: (من فرع عيصك كالفنيق المغرم) و (كالبدر حف بواضحات الأنجم) هذا إن دل إنما يدل على تمكن الشاعر من اللغة.

ومن الشعراء الذين مدحوا يزيد بن عبد الملك وهو الذي خلف عمر بن عبد العزيز الشاعر النابغة الجعدي مع أن يزيد بن عبد الملك عرف باللهو والتشبيب بالنساء فمدحه بصفات الحلم والجود والعدل والوفاء بالعهد وغيرها مما نراه في الأبيات: (**عبد القادر، 2001م، ص112**)

أعطي الحلم والعفاف مع الجود ورأياً يفوق رأي الرجال
عادلٌ مقسطٌ وميــزانُ حقٍّ لم يُحف في قضائه للموالي
موفياً بالعهود من خشية الله ومن يُعْفه يكن غير قالِ
محسنٌ مجملٌ نقيٌّ قويٌّ وهو أهلُ الإحسان والإجمال

تحمل هذه الأبيات دلالات عميقة، فدلالة: عادل مقسط، ميزان حق، محسن مجمل، نقي قوي، وغيرها. تدل على صلاح الممدوح، وما يدور في ذهن المتلقي من هذه الأمور.

3. 3. مدح ولاة وعمال بني أمية:

مدح ولاة بني أمية من أسباب تطور شعر المدح في عصر بني أمية وذلك لأن بني أمية استعانوا بعدد من الولاة المشهورين الأقوياء أصحاب الفصاحة والبلاغة والبيان، ولا عجب أن رأينا الشعراء يهرعون إليهم ويمدحونهم بأشعارهم ، أمثال زياد بن أبيه، و الحجاج بن يوسف الثقفي، وخالد القسري وغيرهم، ومن عمال الدولة الأموية آل المهلب بن أبي صفرة وغيرهم.

قال حارثة بن بدر الغداني مادحاً زياد بن أبيه: (**ضيف، 2005م، ص99**)

فأنت إمام مَعْدَلةٍ وقَصدٍ وحزم حين تحضرُك الأمور
أخوك خليفة الله ابن حرب وأنت وزيره نعم الوزير

بأمر الله منصورٌ معانٌ إذا جار الرعيـة لا تجور
وكنت حيَاً وجئت على زمان خبيثٍ ظاهر فيه شرور
فلما قام سيف الله فيهم زياد قام أبلج مستنيـر

يمدح الشاعر زياداً بالصفات الدينية فهو إمام عادل ينصره الله ويعينه، حتى يشفي العراق من الشرور والآثام التي به، وهو سيف من سيوف الله أرسله رحمة بأهل العراق، ونلاحظ أن الشاعر خاطبه في البيت الثاني بـ (أخوك خليفة الله بن حرب) فقد جعل معاوية خليفة الله، وجعل زياداً أخاً وذلك لأن معاوية ألحق زياداً بأبيه، فكانوا يقولون – أحياناً – زياد بن أبي سفيان.

وعلى رأس ولاة بني أمية الذين قصدهم الشعراء، ومدحوهم بأشعارهم الحجاج بن يوسف الثقفي ومن الشعراء الذين مدحوا الحجاج الشاعر جرير، ومن ذلك قصيدته التي مطلعها: (**جرير، 1425هـ/ 2005م، ص27**)

سئمت من المواصلة العتابا وأمسى الشيب قد ورث الشبابا
غدت هوج الرياح مبشرات إلى بين نزلتِ به السحابا

وقال مادحاً الحجاج : (**جرير، 1425هـ/ 2005م، ص29**)

دعا الحجاج مثل دعاء نوح فأسمع ذا المعارج فاستجابا
صبرت النفسَ يا ابن أبي عقيل محافظةً فكيف ترى الثوابا
ولم يرض ربك لم يُنَزِّل مع النصر، الملائكة الغضابا
إذا سعر الخليفة نار حرباً رأى الحجاج أثقبها شهابا

يمدح جرير الحجاج ويصفه بالتقوى واستجابة الدعاء من الله ونزول الملائكة من السماء تقاتل في صفوفه كما يصفه بالحزم والعزم، وقوة الشكيمة والدهاء وغير من الأوصاف التي تدل على تطور فن المدح واشتماله على معان جديدة.

وفي البيت الأول اقتباس من قوله تعالى: (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا). (نوح: 26)

والفرزدق يمدح الحجاج بصفات التقى، وبأنه سيف من سيوف الله، ولا يقبل الرشوة فقال : (**ضيف، 2005م، ص146– 147**)

ولم أر كالحجاج عوناً على التقى ولا طالباً يوماً طريدة تابل
بسيف به لله تضرب من عصى على قصر الأعناق فوق الكواهل
شفيت من الداء العراق فلم تدع به ريبةً بعد اصطفاق الزلازل
وكنا بأرض بابن يوسف لم يكن يبالي بها ما يرتشي كل عامل
وما تُبْتَغضى الحاجاتُ عندك بالرشا ولا تُقْتَضَى إلا بما في الرسائل
وما الناس إلا في سبيلين منهما سبيل لحقٍّ أو سبيلٌ الباطل

قال الدكتور شوقي ضيف:" ومن المؤكد أن هذه معان لم تكن تخطر ببال المقصدين للمديح في الجاهلية، فلم يكونوا يمدحون بالتقى، ولا كانوا يصفون ممدوحيهم بأنهم سيوف الله، ولا كانوا يذكرون الرشوة ، ولا الحق والباطل. وقد استرسل الفرزدق في هذه القصيدة يصف كيف قضى الحجاج على ثورة اندلعت في العراق ، وكل ذلك جديد في قصيدة المديح العربية". (**ضيف، 2005م، ص146– 147**)

وقالت ليلى الأخيلية تمدح الحجاج بن يوسف: (**سراج الدين، 2002م، ص35**)

أحجاجُ إن الله أعطاك غاية يُقصِّر عنها من أراد مداها
إذا ورد الحجاج أرضاً مريضةً تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العياء الذي بها غلام إذا هز القناة ثناها
إذا سمع الحجاج صوت كتيبة أعد لها قبل النزول قراها

الملاحظ على الأبيات السابقة أن ليلى الأخيلية لم تمدح الحجاج بصفات الدين والتقوى التي رأيناها عند غيره، ولعل ما أوردت من صفات هي ما يناسب نفسية الحجاج.

ومن الشعراء الذين مدحوا عمال بني أمية الشاعر العديل بن الفرخ العجلي فقد مدح يزيد بن المهلب، وكان العديل قد قصد الحجاج يريد الدخول عليه فمنعه الحاجب من الدخول عليه، فانصرف العديل إلى يزيد بن المهلب فلما دخل عليه أنشأ يقول : (**عبد القادر، 2001م، ص117**)

لئن أُرتجَ الحجاجُ بالبخل بابه فباب الفتى الأزدي بالعرف يفتح
فتى لا يبالي الدهر ما قل ماله إذا جعلتْ أيدي الكرام تسنح

يداه يد بالعرف تنهب ما حوت وأخرى على الأعداء تسطو وتجرح
إذا ما أتاه المرملون تيقنوا بأن الغني فيهم وشيكاً سيسرح
أقام على العانين حراس بابه ينادونهم والحر بالحر يفرح
هلموا إلى سيب الأمير وعرقه فأن عطاياه على الناس تنفح
وليس كعلج من ثمود يكفُّه من الجود والمعروف حزمٌ مطوحُ

يقارن الشاعر بين باب الحجاج المغلق وباب يزيد المفتوح، ثم ينتقل إلى مدح يزيد ويمدحه بالكرم والقوة وهي صورة لها دلالتها في العصر الأموي.

ومدح كعب بن معدان الأشقري المهلب بن أبي الصفرة وأبناءه، فقال: (**طليمات، الأشقر، 1422هـ/ 2002م، ص350– 351**)

يراك الله حين يراك بحراً وفجر منك أنهاراً غزارا
بنوك السابقون إلى المعالي إذا ما أعظم الناس الخطارا
كأنهم نجوم حول بدر دراري تكمَّل فاستدارا
ملوك ينزلون بكل ثغر إذا ما الهام يوم الروع طارا
رزان في الأمور ترى عليهم من الشيخ الشمائل والنجارا
نجوم يُهتدى بهم إذا ما أخو الظلماء في الغمرات جارا

وفي الأبيات هبط الشاعر بالأسرة للأرض فإذا الأب سيل عرم، والأبناء جداول متفرعة منه. وارتقى بها إلى السماء، فإذا الوالد قمر والأولاد شهب يكنفه، ثم كرر الصورة فأبقى على الشهب ، ولكنه أرسل نورها من السماء إلى الأرض لترشد الضال، وفي سبيل الحفاظ على وراثة الولاية نقلها من المهلب إلى بنيه، ونقل معها شجاعته في الحرب وحكمته في السلم.

ومدح الطرماح بن حكيم خالداً القسري أمير العراق أيام هشام بن عبد الملك فقال:

وَصَلَ الحديثُ لهم قديمَ فعالهم فجرَوْا على لقم ودَعْس أمار
حسباً تواصل، ليس يفرق بينه جدٌّ أغث، ولا وشائق عار
صُدُفُ النواظرِ عن مَنَا جاراتهم حتى يبن حواصن الأسرار

فخالد في نظر الطرماح ضم مجده الطريف إلى التليد وجعل سيرته الميمونة تتمة لسير الأشراف من أجداده، وكلهم أطهار أبرار ما شابتهم شائبة من فحش، ولا امتدت من أبصارهم خائنة الأعين إلى جارة من جاراتهم المخدرات الخفرات. (**طليمات، الأشقر، 1422هـ/ 2002م، ص337**)

ومدح الفرزدق خالد بن عبد الله القسري بقوله:

لقد كان داء بالعراق فما لقوه طبيباً شفى أدواءهم مثل خالد
شفاهم برفق خالط الحلم والتقى وسيرة مهدي إلى الحق قاصد
فإن أمير المؤمنين حباكم بمستبصر في الدين زين المساجد
وأنا لنرجو أن ترافق رفقة يكونون للفردوس أول وارد
فإن (ابن عبد الله) قد عرفت له مواطن لا تخزيه عند المشاهد
فزد خالداً مثل الذي في يمينه تجده عن الإسلام أكرم ذائد

فمدحه بالقوة ويشبهه بالطبيب الذي نجح في أن يشفي أمراض العراض، ويعيد إليه الصحة والسلامة بعد المرض، ويقصد به هنا ثورة العراق على حكم بني أمية، وإخماد الثورات بالتأكيد هي معان جديدة مستخدمة عند الشعراء السابقين، ولكن الوصف بالسياسة الشديدة الممزوجة بالتقوى والرفق والحلم ، ثم الدعوة له بحسن الرفقة إلى الفردوس المعينة على الخير ونصرة الإسلام والذود عنه بلا شك هي معان جديدة استخدمها شعراء العصر الأموي .

3. 4. مدح قادة الأحزاب السياسية:

وكما مدح شعراء العصر الأموي الخلفاء والولاة وقادة وعمال الدولة الأموية. مدحوا – كذلك– قادة الأحزاب السياسية، وقوادها كأحزاب الشيعة والخوارج وبني الزبير، وقد أوردنا بعض الأشعار التي مدح الشعراء فيها حكام الدولة الأموية.

وتكاد تكون المعاني التي استخدمها الشعراء الآخرون استخدمها شعراء الأحزاب الأخرى فها هو النابغة الجعدي يرسم صورة لعبد الله بن الزبير(رضي الله عنه) صوره فيها خليفة حق وعدل يكمل مسيرة الخلفاء الراشدين، بفضل ما حباه الله به من حب العدل والرشد والسداد: (**الجعدي، 1998م، ص151– 152**)

حكيت لنا الصديق لما وليتنا وعثمان والفاروق فارتاح معدم
وسويت بين الناس فاستووا فعاد صباحا حالك اللوم مظلم
أتاك أبو ليلى يجوب به الدجى دجى الليل جواب الفلاة عثمثم
لتجبر منه جانباً زعزعت به صروف الليالي والزمان المصمم

ولكن الملاحظ أن حزب بني الزبير قلَّ شعراؤه، وما مدحوا قادته، وروي في ذلك أن عبد الله بن الزبير لم يعط الشعراء كخلفاء بني أمية الذين أغدقوا على الشعراء بخلاف عمر بن عبد العزيز لورعه، ولكن مع ذلك فقد مدح بعض الشعراء بني الزبير مثل عبد الله بن قيس الرقيات الذي مدح مصعب بن الزبير، وروي أن مصعباً كان كريماً لم يبخل على الشعراء، وأبلغ ما قال فيه عبد الله بن قيس الرقيات: (**عبد القادر، 2001م، ص142**)

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عند وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه جبروت ولا به كبرياء
يتقي الله في الأمور وقد أفلح من كل همه الاتقاء

وفي الأبيات يمدح الشاعر مصعب بأنه يتقي الله سبحانه وتعالى في حكمه وعدله للرعية، فهو ملك قوي، ومع كل ذلك ليس في حكمه جبروت ولا كبرياء.

ويدافع عن قريش ويبين أهمية استمرار حكمها في الحجاز فيقول: (**عبد القادر، 2001م، ص142**)

أيها المشتهي فناء قريش بيد الله عمرها والفناء
إن تودع من البلاد قريش لا يكن بعدهم لحي بقاء

أما شعراء الخوارج فيتردد في شعرهم الحديث عن الشجاعة والتمسك بالدين ونحول الجسم من العبادة والجهاد، من ذلك قول عمرو القنا بن عميرة للعنبري التميمي عن أصحابه: (**عبد القادر، 2001م، ص132**)

معي كل أواه بري الصوم جسمه ففي الجسم منه نهكة وشحوب

فأصحاب الشاعر أهل عبادة وتبتل بري الصوم أجسامهم فصارت هزيلة منهكة شاحبة، وهي صورة طالما رددها شعراء الخوارج.

وقال الطرماح بن حكيم في مدح الخوارج: (**الحسن، 2012م، ص281**)

لله درُّ الشراة إنهم إذا الكرى مال بالطُلى أرقوا
يُرجِّعونَ الحنينَ آونةً وإن علا ساعة بهم شهقوا
خوفاً تبينُ القلوبُ واجفةً تكاد عنها الصدور تنفلق
كيف أرجي الحياة بعدهم وقد مضى مؤنسيَّ فانطلقوا
قومٌ شحاحٌ على اعتقادهم بالفوز مما يُخافُ قد وثقوا

أوضح الشّاعر في هذه الأبيات الحالة التي يكون عليها الخوارج الشراة فهم قوم شحيحة أجسامهم وذلك لتمسكهم بالدين، وبذل نفوسهم رخيصة في سبيل الله، والخوف من الله تعالى. واستخدم الشاعر في ذلك أسلوبًا دالًا على تمسكهم بالدين الإسلامي مخافةً من المولى عز وجل يوم الحساب، حيث استعمل جملة (خوفاً تبينُ القلوبُ واجفة) أي بمعنى: مطربة قلقة مما تشاهد من الأهوال، مقتبسًا من القرآن الكريم من قوله تعالى: (قلوب يومئذ واجفة) (النازعات:8) وفي الأبيات نوّع الشاعر بين الأسلوبين الانشائي والخبري.

ومدح عمران بن حطان أحد شعراء الخوارج أصحابه:

وإخوةٍ لهم طابتْ نفوسُهُم بالموت عند التفاف الناس بالناس
والله ما تركوا من منبع لهدى ولا رضوا بالهوينا يوم ميجاس
أتعجزون وترجون اللحاق بهم أنى يكون ذو عجز كأكياس

يتحدث عن شجاعة أصحابه يوم وقعة (ميجاس) وهي موضع بالأهواز، ويصفهم بالهداية ورفض الذل ولا يرى في الناس نداً لهم. (**عبد القادر، 2001م، ص133**)

ويمدح عمران بن حطان عبد الرحمن بن ملجم الذي اغتال علي بن أبي طالب ويبدي إعجابه به ويصفه بالتقوى: (**ضيف، 2010م، ص307**)

يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضونا
إني لأذكره حيناً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا

ويصف أصحابه بأنهم باعوا نفوسهم لله فقبورهم بطون الطير التي تأكلهم عقب المعارك. (**ضيف، 2010م، ص133**)

ويركز شعراء الخوارج في مدحهم لأصحابهم على فكرتين الأولى الشجاعة والسيادة في الحرب والثانية الخشوع والتقوى قال أحدهم:

وهم الأسود لدى العرين بسالةً ومن الخشوع كأنهم أحبار

وكما مدح شعراء الخوارج أصحابهم بصفات الشجاعة والتقوى وبيع نفوسهم في سبيل الله كذلك مثل هذه الصفات عند شعراء الشيعة، مثل مدح أيمن بن خريم، وهو من شعراء الشيعة فقد قال في آل البيت :

نهاركم مكابدة وصوم وليلكم صلاة واقتراء

وليتم بالقرآن وبالتزكي فأسرع منكم ذاك البلاء

ورأينا كيف مدح الفرزدق علي بن الحسين بقصيدته التي مطلعها:

هذا الذي ترف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

4. المحور الثالث: سمات شعر المدح:

المتأمل لشعر المدح في العصر الأموي يجد أن هناك مميزات وسمات واضحة تميز بها شعر المدح، في العصر. اتسم شعر المدح مقارنة مع العصرين السابقين (الجاهلي وصدر الإسلام)، ولعل أول ما يلحظ هو التأثر بالمعاني الإسلامية، والاقتباس من القرآن الكريم، ومع أن شعراء العصر السابق (صدر الإسلام) تأثروا بالمعاني والقيم الإسلامية، ولكن التأثير كان بصورة أعمق، وهذا يعني نضوج الفكر الإسلامي في عقول العرب، والأمثلة علي ذلك كثيرة منها.

قال جرير في مدح معاوية بن هشام بن عبد الملك: (**جرير، 1425هـ/ 2005م، ص185**)

من يهده الله يهتدْ لا مضلّ له ومن أضل فما يهديه هي هادي

لاقوا بعوث أمير المؤمنين لهم كالريح إذ بُعثتْ نحساً على عاد

فيهم ملائكة الرحمن مالهم سوى التوكل والتسبيح من زاد

أنصار حق على بلق مسومةٍ أمداد ربك كانوا خير أمداد

وواضح تأثر جرير في البيت الأول بقوله تعالى: (ومن يهدي الله فهو المهتدي، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون)(الأعراف، 178) وقوله تعالى:(ومن يضلل الله فلا هادي له) (الأعراف، 186) وكثير من الألفاظ التي وردت في أبياته ألفاظ مأخوذة من القرآن الكريم مثل (عاد) و(ملائكة الرحمن)و(التوكل) و(التسبيح)و (مسومة).

وقال الفرزدق: (**الفرزدق، 1988م، ص71**)

دعوت الذي ناداه يونس بعد ما ثوى في ثلاثٍ مظلماتٍ ففرجا

وقال: (**طليمات، الأشقر، 1422هـ/ 2002م، ص355**)

لن مثل يوسف لما كاد إخوانه سل الضغائن، حتى ماتت الحقد

يشير الفرزدق في البيت الأول إلى قصة سيدنا يونس عليه السلام، وفي الثاني إلى قصة يوسف عليه السلام.

وتتضح المعاني في مدح جرير للحجاج بن يوسف:

دعا الحجاج مثل دعاء نوح فأسمع ذا المعارج فاستجابا

ولو لم يرض ربك لم ينزل مع النصر الملائكة الغضابا

فدعا الحجاج مثل دعاء نوح عندما دعا ربه فقال: (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) (نوح، 26) وذو المعارج من صفات الله (من الله ذي المعارج) (المعارج، 3)

وحتى الشاعر الأخطل النصراني لم يخل شعره في مدح بني أمية من التأثر بالثقافة الإسلامية من ذلك قوله في مدح عبد الملك بن مروان:

إلى امرئ لا تعدينا نوافله أظفر الله فليهنئ له الظفر

الخائض الغمرة الميمون طائره خليفة الله يستسقى به المطر

في تبعة من قريش يعصبون بها ما إن يوازي بأعلى نبتها الشجر

ثانياً: ومن السمات التي تلحظ على شعر المدح في العصر الأموي أن القصيدة تحتوي على موضوعات مختلفة، بل في بعض الأحيان القصيدة تحتوي على المدح والفخر والهجاء، وتبدأ أحيانا بالغزل مثل قصيدة جرير في مدح الحجاج والتي مطلعها:

سئمت من المواصلة العتايا وأمسى الشيب قد ورث الشبابا

فبعد ثلاثة عشر بيتا يتخلص إلي المدح: (**جرير، 1425هـ/ 2005م، ص29**)

دعا الحجاج مثل دعا نوح فأسمع ذا المعارج فاستجابا

ومثلها قصيدة جرير التي يمدح فيها عبد الملك ويهجو تغلبا ومنها قوله: (**جرير، 1425هـ/ 2005م، ص509**)

الله طوقك الخلافة والهدى والله ليس لما قضى تبديل

ويتضح التأثير بالمعاني الإسلامية في قصيدة المديح في قول كعب بن معدان الأشقري في مدح المهلب بن أبي صفرة: (**عبد القادر، 2001م، ص147– 148**)

لولا المهلب للجيش الذي وردوا أنهار (كرمان) بعد الله ما صدروا

إنا اعتصمنا بحبل الله إذا جحدوا بالمحكمات ولم تكفر كما كفروا

جاروا عن القصد والإسلام واتبعوا دينا يخالف ما جاءت به النذر

فمعاني الإسلام في (إنا اعتصمنا بحبل الله) و(المحكمات).

ثالثًا: دخول بعض مظاهر الحضارة نتيجة للتأثر بحضارات الأمم الأخرى كالروم والفرس وغيرها، ولكن ليس بتلك الصورة التي نراها في العصر العباسي، بل إنها لم تكن محدودة. وذلك واضح في مدح عبد الله بن قيس الرقيات لعبد الملك بن مروان: (**طليمات، الأشقر، 1422هـ/ 2002م، ص353**)

إن الأغر الذي أبوه أبو العاصي عليه الوقار والحجب

يعتدل التاج فوقه مفرقه على جينٍ كأنه الذهب

فزجره عبد الملك وقال له:(يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم وتقول في مصعب):

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

رابعًا: كثيراً ما كان الشاعر يلجأ في مدح بني أمية إلى المبالغة فيسبغ على الخلفاء من الصفات ما يرفعهم إلى مقامات ليسوا أهلا لها من ذلك قول الفرزدق في مدح يزيد:

ولو كان بعد المصطفى من عباد نبي لهم مهم لأمر العزائم

لكنت الذي يختاره الله بعده لحمل الأمانات الثقال العظائم

ورثتم خليل الله كل خزانة وكل كتاب بالنبوة قائم

وحيلك حبل الله من يعتصم به إذا ناله يأخذ به حبل سالم

وفي الأبيات كانت المبالغة واضحة من الشاعر حين جعل النبوة لممدوحه بعد نبوة محمد رسول الله– صلى الله عليه وسلم.

ويبالغ عدي بن الرقاع العاملي في مدح الوليد بن عبد الملك: (**عبد القادر، 2001م، ص154**)

أولا ترى أن البرية كلها ألقت خزائمها إليه فقادها
ولقد أراد الله إذ ولاكها من أمة إصلاحها ورشادها
أعمرت أرض المسلمين فأقبلت وكففت عنها من يروم فسادها
وأصبت في أرض العدو مصيبة عمت أقاصي غورها ونجادها

فبالغ الشاعر في مدح ممدوحه أيما إبلاغ، إذ جعل البرية كلها تنقاد إليه، وأن الله سبحانه وتعالى ولاه أمر الأمة وإصلاحها.

5. خاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

في خاتمة هذا المقال نرى أن شعر المدح قد تطور كثيراً في هذه العصر لأسباب كثيرة منها:

1- أدى التنافس بين شعراء الأحزاب السياسية، ونقض الشعراء لأشعار بعضهم على تطور شعر المدح في العصر الأموي. وهذا أدى إلى اصطباغ المدح بالصبغة الحزبية السياسية، وتحولت العصبية القبيلية إلى عصبية حزبية.

2- ساعدت البيئات المتنوعة على تطور شعر المدح، حيث ظهرت أسواق جديدة للشعر في العراق والشام ومصر وغيرها.

3- ساعد الحكام من خلال تشجيعهم للشعراء على تطور شعر المدح وكذلك قادة الأحزاب السياسية والولاة وعمال الدولة.

4- تحول المدح إلى ما يشبه المهنة عند بعض الشعراء، وكان ذلك سبب في تجويد القصائد التي يمدح بها ومما أدى إلى تطور فن المدح في هذا العصر.

5- كان أغلب مدح الشعراء لآل البيت يدور حول صفات العمل الصالح، والسعي في سبيل مرضاة الله، والمكانة الرفيعة.

6- أمّا معظم الصفات التي مدح بها الشعراء خلفاء بني أمية وولاتهم هي: الكرم، والثبات، والحزم، والشجاعة، والقوة.

7- مدح الشعراء قادة الأحزاب السياسية بصفات عديدة حيث كان مدحهم للزبيريين بالحق والعدل والكرم. أما شعراء الخوارج فيتردد في شعرهم الحديث عن الشجاعة والتمسك بالدين ونحول الجسم من العبادة والجهاد وبيع نفوسهم في سبيل الله. كذلك مثل هذه الصفات عند شعراء الشيعة.

8- اتّسم شعر المدح في عصر بني أمية بالآتي: التأثر بالمعاني الإسلامية، والاقتباس من القرآن الكريم. احتواء القصيدة على موضوعات مختلفة، كالفخر والهجاء، وتبدأ أحيانا بالغزل. دخول بعض مظاهر الحضارة نتيجة للتأثر بحضارات الأمم الأخرى كالروم والفرس وغيرها. اللجوء إلى مدح الخلفاء بصفات فيها نوع من المبالغة.

6. المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم: برواية حفص عن عاصم.

2- ابن رشيق: ابن رشيق القيرواني، (1995م) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، (ط3، ج1)، بيروت، دار صادر.

3- ابن منظور: محمد بن مكرم، (1985م)، لسان العرب، (ط1، ج6)، القاهرة، دار المعارف.

4- الأسداوي: عبد المجيد، (148هـ - 2007م)، في الأدب الأموي- تجلياته وبناؤه التشكيلي، (ط6، ج1)، الدمام، مكتبة المتنبي.

5- الجبوري: يحيى، (1989م)، الشعر الجاهلي – خصائص وفنونه، (ط2)، بغداد مؤسسة الرسالة.

6- جرير: (1425هـ/ 2005م)، ديوان جرير، (ط2)، بيروت، دار الجيل.

7- الجعدي: النابغة الجعدي، (1998م)، ديوان النابغة الجعدي، (ط1)، بيروت، دار صادر.

8- الحسن: حمد النيل محمد الحسن، (2012م) الأدب الأموي- تاريخ- دراسة- نصوص- تحليل،(ط1)، الخرطوم، دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر.

9- خفاجي: محمد عبد المنعم، (1990/1410م)، الأدب العربي وتاريخه- في العصرين الأموي والعباسي، (ط1)، بيروت، دار الجيل.

10- الدهان: سامي، (1999م)، فنون الأدب العربي- الفن الغنائي (ط2) القاهرة، دار المعارف.

11- الزمخشري: الإمام جار الله أبي القاسم محمود بن عمر (1404هـ/1984م) أساس البلاغة، (ط3)، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر.

12- سراج الدين: محمد (2002م)، المديح في الشعر العربي، (ط1)، دمشق، دار الراتب الجامعية.

13- ضيف: شوقي، (2010م)، تاريخ الأدب العربي- العصر الإسلامي، (ط26)، القاهرة، دار المعارف.

14- ضيف: شوقي، (2005م)، التطور والتجديد في الشعر الأموي، (ط9)، القاهرة، دار المعارف.

15- طليمات، الأشقر، غازي، عرفان، (1422هـ/2002م) الأدب العربي في العصر الأموي ، قضاياه ، أغراضه، أعلامه، سفنونه، (ط1)، بيروت، دار الفكر المعاصر.

16- عبد القادر: محمد (2001م)، دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي، (ط2)، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

17- الفرزدق: (1988م)، ديوان الفرزدق، (ط2)، بيروت، دار صادر.

18- الكميت: زيد الأسدي، (2000م) الديوان، (ط1)، بيروت، دار صادر.